تجليات الأسلوبية في النقد المغاربي المعاصر

د: يوسف نقماري
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)

الملخص:
تهدف هذه الدراسة إلى تحديد بعض المفاهيم منها مفهوم الأسلوبية، والأسلوب، وإبراز كيفية استقبال نقاد المغرب العربي للأسلوبية في النقد المعاصر، فللأسلوبية مجالات مختلفة وعلاقات متنوعة، والأسلوبية تدرس خصوصيات النصوص الأدبية ومميزاتها، وتقوم على دراسة النص في ذاته إذ تقوم بتفحص أدواته وأنواع تشكيلاته الفنية، وهي تتميز عن بقية المناهج النصية بتناولها النص الأدبي بوصفه رسالة لغوية قبل كل شيء فتحاول تفحص نسيجه اللغوي.

الكلمات المفتاحية: الأسلوب، الأسلوبية، النقد، النص، اللسانيات

Abstract:
This research aims to identify some concepts, as : stylistics, style. In this sense, our paper focuses on the way in which Maghreb's researchers absorbed the stylistics in contemporary criticism.The stylistics has different fields and various relations; moreover, it studies the characteristics of the literary texts. It stands on the study of the text by examining its components and the kinds of its artistic structures. In addition, it differs from the other textual approaches since it deals with the literary text as a linguistic message. Thus, it focuses on its linguistic tissue.

Key words : style, stylistics, critic, text, linguistic

Résumé:
Cette recherche vise à identifier certains concepts, comme: la stylistique, le style. En ce sens, notre article se concentre sur la manière dont les chercheurs du Maghreb ont absorbé la stylistique dans la critique contemporaine. La stylistique a de différents domaines et de relations variées ; en outre, elle étudie les caractéristiques des textes littéraires. Elle s'intéresse à l'étude du texte en examinant ses composants et les types de ses structures artistiques. En plus, elle se diffère aux autres approches textuelles car elle traite le texte littéraire comme étant un message linguistique. Ainsi, elle se concentre sur son tissu linguistique.

Mots clés : style, stylistique, critique, texte, linguistique.

لقد ظهرت المناهج النقدية الحداثية في النقد العربي الحديث والمعاصر عن طريق المثاقفة والترجمة، والدراسة في الغرب، حيث ساهم هذا الحوار الثقافي في ظهور إشكالية الأصالة والمعاصرة، فهناك من الدارسين من رفضها في بداية الأمر، و هناك من حاول تطبيقها كما هي في تحليل النصوص الإبداعية، ومنهم من حاول تبيئها و تأصيلها حسب الثقافة العربية، فما تجليات الأسلوبية في النقد المغاربي المعاصر؟

1- مفهوم الأسلوب و الأسلوبية:

أ- مفهوم الأسلوب: يُحدِّد (معجم الأسلوبية) الأسلوب[1] (Style) كما يلي: "وفي أبسط معانيه يدل الأسلوب على طريقة التعبير في الكتابة أو الكلام، مثلما أنّ هناك طريقة في عمل أشياء معينة مثل لعب السكواش أو الرسم، وربما نتحدّث عن كتابة شخص بأنها ذات أسلوب منمَّق أو عن كلام شخص ما بأنه ذو أسلوب هزلي ".[2]

ويرى بيير غيرو P. Guiraud أن الأسلوب:" طريقة في الكتابة، وهو من جهة أخرى، طريقة في الكتابة لكاتب من الكتاب، ولجنس من الأجناس، ولعصر من العصور".[3]

وإذا فحص الكاتب ما تراكم من تراث التفكير الأسلوبي وشقّه بمقطع عمودي يَخرِق طبقاته الزّمنية اكتشف أنه يقوم على ركْحٍ ثلاثيٍّ دعائمه هي: المخاطِب، والمخاطَب، والخطاب، وليس من نظرية في تحديد الأسلوب إلا اعتمدت إيبيستيميا إحـدى هذه الركائز الثلاث أو ثلاثتها متعاضدة متفاعلة[4].

وأول ما يطالعنا في اعتماد التفكير الأسلوبي على المخاطِب تعريف الأسلوب "بأنه قِوام الكشف لنَمَط التفكير عند صاحبه، وتتطابق في هذا المنظور ماهية الأسلوب مع نوعيّة الرسالة المبلغة مادة وشكلا"[5]. واعتماد هذا المقياس في تحديد الأسـلوب عريق في القدم، متجدّد ما انفكّ يستهوي روّاد التنظير، والسبب في ذلك أن العلاقة العضوية بين اللاّفِظِ والملفوظ مـن العمـق والحدّة أحيانا بحيث يتعذّر على الفاحص فصل الباعث والمبعوث وجودا.

هذا المنحى في تحديد ماهية الأسلوب هو بمثابة المِعيار الدلالي لمحتوى الرسالة المبلَّغة وهي ظاهرة يعلِّلها بعض رواد التفكير الأسلوبي في المشرق بأنّ: الصورة اللفظية التي هي أول ما يُلقى من الكلام لا يمكن أن تحيا مستقلة وإنما يرجع الفضل في نظامها اللغوي الظاهر إلى نظام آخر معنوي انتظم وتألّف في نفس الكاتب أو المتكلم، فكان بذلك أسلوبا معنويا ثـم تكـوّن التأليف اللفظي على مثاله وصار ثوبه الذي لبسه أو جسمه إذا كان المعنى هو الروح، ومعنى هذا أن الأسلوب معان مُرتَّبة قبل أن يكون ألفاظا منسَّقة وهو يتكون في العقل قبل أن يجرِي به اللسان أو يجري به القلم[6].

وتبدأ عملية الإنشاء عند المنشئ بوجود مثيرات أو انفعالات أو محركات داخلية نابعة من ذاته، أو خارجية من البيئـة المحيطة به، هذه المثيرات تتحول إلى أفكار ومعان في ذهن صاحبها، ثم تترجم إلى عبارات لفظية تمثِّل أسلوب المنشئ.

ويعني ذلك أنّ " كل أسلوب صورة خاصة بصاحبه تبين طريقة تفكيره، وكيفية نظرته إلى الأشياء وتفسيره لها وطبيعة انفعالاته، فالذاتية هي أساس تكوين الأسلوب."[7]

وأما المظهر الثاني من مظاهر نظرية تحديد الأسلوب اعتمادا على المؤلّف الباث فهو امتداد للمظهر الأول، ويتمثل في تكثيف درجة التطابق بين مفهوم الأسلوب والذي إليه ينتمي، فلا يقتصر التناظر على تقريب صورة الأسلوب من صورة فِكـرِ باثِّه وإنما يغدو الأسلوب هو ذاته شخصية صاحبه، وهو حدٌّ من التمازج تختلط فيه تلقائية الأسلوب والذات المفرزة له. ومـردُّ هذه الوجهة قولة بيفون Buffon: " إنّ من الهين أن تُنتزَع المعارف والأحداث والمكتشفات أو أن تُبَدَّل، بل كثيرا ما تترقَّى إذا ما عالجها مَن هو أكثر مهارة من صاحبها، كل تلك الأشياء هي خارجة عن ذات الإنسان، أما الأسلوب فهو الإنسان عينه لـذلك تعذّر انتزاعه أو تحويله أو سلخه".[8]

ولقد أثّر بيفون Buffon بنظريته هذه في كل الذين جاؤوا بعده من رواد النقد الأدبي ومنظّري الأسلوب فتبنّاها شوبنهور Schopenhauer فعرّف الأسلوب بكونه ملامح الفكر، وتمثلها فلوبير Flaubert ثم صاغها فقال: " يُعتبر الأسلوب وحده طريقة مطلقة في تقدير الأشياء"[9]، وكذلك فعل ماكس جاكوب M. Jacob إذ قال: "إن جوهر الإنسان كامن في لغته وحساسيته"[10].

وهكذا تتنزّل نظرية تحديد الأسلوب منزلة لوحة الإسقاط الكاشفة لِمخبآت شخصية الإنسان، ما ظهر منها في الخطـاب وما بطن، ما صُرِّح به وما ضُمِّن، فالأسلوب جسر إلى مقاصد صاحبه من حيث إنه قناة العبور إلى مقومات شخصيته لا الفنية فحسب بل الوجودية مطلقا.

فالأسلوب اشتقاق الأديب من الأشياء ما يتلاءم وعبقريته، وهو ما يحيل إلى تعريف أحد مفكري القرن الثامن عشـر إذ يقول: يُطلق الأسلوب على ما ندر ودقّ من خصائص الخطاب التي تبرز عبقرية الإنسان وبراعته فيما يكتب أو يلفظ"[11].

ثم إنّ التسليم بتطابق الأسلوب والعبقرية قد حتّم القول بقوة الدفع التلقائي في عملية إفراز الأسلوب مما أفضى بالباحثين إلى تقرير أنه في نشأته وفي تشكُّلِهِ وكذلك في بلوغ تمامه ظاهرة غير واعية؛ معنى ذلك أن نسيج الإبداع الفني لدى الأديب من التلقائية بحيث يغدو تولّدا لا يصحبه الإدراك في لحظة نشأته الأولى، وعلى هذا المستند فالأسلوب بصمات تحملهـا صـياغة الخطاب فتكون كالشهادة التي تمحى، وهذه الصورة صاغها بروست Proust وأخذها عنه كل من مونان، ودي لوفر، وهـي

تكشف عمق التقدير في ارتباط الأسلوب بصاحبه عضويا حتى لكأن الأسلوب (إمضاء) أو(خاتم) أو في اصطلاح عرف المؤسسات "طابَع وتوقيع "[12].

أما تحديد ماهية الأسلوب باعتماد جوهر الخطاب في ذاته فلعله الركن الضارب في مجمع رؤى الحداثة لِما يتجذر فيه من ركائز المنظور اللساني، فإذا كان الأسلوب في (فرضية المخاطِب) صفيحة الانعكاس لأشعة الباثِّ فكرا وشخصية، وكان في (فرضية المخَاطَب) رسالة مُغْلَقَة على نفسها لا تفضُّ جدارها إلا يدا مَن أُرسِلت إليه، فإنه في "فرضية الخطاب" موجود في ذاته.[13]

يمتد حبل التواصل بينه وبين لافظه ومحتضنه لاشك، ولكن دون أن تُعلَّق ماهيته على أحد منهما، وصورة ذلك أنّ النص إن كان وليدا لصاحبه فإنّ الأسلوب هو وليد النص ذاته لذلك يستطيع الأسلوب أنْ ينفصل عن المؤلّف المخاطِب لأنّ رابطة الرحم بينهما حضورية في لحظتي الإبداع والإيقاع، وهذا المنظار في تحديد ماهية الأسلوب يستمِد ينابيعه من مقومات الظاهرة اللغوية في خصائصها البارزة ونواميسها الخفية.

والمُنظِّرون لتحديد الأسلوب من زاوية النص يفْرقُون بين وضع اللغة الكائنة في طيات معاجمها، ووضعها حين تخرج إلى مجال الاستخدام. فهذا التعريف يتعامل مع اللغة على أساس أنها ذات مستويين: الأول ساكن، ويتمثل في وجودها قبل خروجها إلى حقل الاستعمال الخارجي، والآخر متحرك، ويقصد به اللغة حين تخرج من أطرها المعجمية بما تحوي من قواعد نحوية وصرفية إلى ميدان عملها كي تؤدي وظيفتها الإخبارية المنوطة بها، ونعني بها نقل الأفكار وتوصيل المعلومات[14].

ويرجع هذا المفهوم إلى "اللغوي السويسري دي سوسير De Saussure الذي أسس المدرسة الوصفية في العلوم اللغوية. وقد قامت هذه المدرسة على أساس ما يمكن أن نسميه بالثنائية اللغوية، وهي ثنائية تقسم النظام اللغوي إلى مستويين: مستوى اللغة (Langage)، ومستوى الخطاب (Parole)، ويشتمل المستوى الأول على قواعد البنية الأساسية للغة، بينما يمثل المستوى الثاني اللغة في حالة الاستخدام"[15].

وتكاد جل التيارات التي تعتمد الخطاب أسّا تعريفيا للأسلوب تتصب في مقياس تنظيري هو بمثابة العامل المشترك المُوحِّد بينها ويتمثل في مفهوم الانزياح (L’écart) ولئن استقام له أن يكون عنصرا قارًّا في التفكير الأسلوبي فلأنه يستمد دلالته- لا مع الخطاب الأصغر كالنص والرسالة- وإنما يستمد تصوره من علاقة هذا الخطاب الأصغر بالخطاب الأكبر وهو اللغة التي فيها يُسبك ولذلك تعذَّر تَصورّهُ في ذاته إذ هو من المدلولات الثنائية المُقتضِية لنقائضها بالضرورة فكما لا نتصور(الكبير) إلا في طباق مع (الصغير) فكذلك لا نتصور انزياحا إلا عن شيء ما،[16] وهذا المسبار الأصليُّ الذي يقع عنه الخروج، وإليه يُنسب الانزياح هو في ذاته مُتَصورّ نِسبي تذبذب الفكر اللساني في تحديده وبلورة مصطلحه فكلٌّ يَسِمه من ركن منظور خاص وقد اُصطلح عليه بالاستعمال النفعي للظاهرة اللسانية[17].

ب- مفهوم الأسلوبية: إن أول من استخدم مصطلح الأسلوبية[18] هو (نوفاليس) الذي كانت تختلط الأسلوبية عنده بالبلاغة، ولقد توالت تحديدات الأسلوبية - فيما بعد - وخضعت إلى منظورات مختلفة فهي: "علم التعبير، وهي نقد للأساليب الفردية"[19]، كما أنها حسب"أريفاي M. Arrivé": "وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات"، وهي حسب "دولاس": "تعرَّف بأنها منهج لساني"[20].

وحدَّد ريفاتير Riffaterre الأسلوبية بأنها: "علم يُعنى بدراسة الآثار الأدبية دراسة موضوعية، وهي لذلك تعنى بالبحث عن الأسس القارة في إرساء علم الأسلوب، وهي تنطلق من اعتبار الأثر الأدبي بنية سنية تتحاور مع السياق المضموني تحاورا خاصا"[21].

بمعنى أنها تقوم على دراسة النص في ذاته إذ تقوم بتفحص أدواته وأنواع تشكيلاته الفنية، وهي تتميز من بقية المناهج النصية بتناولها النص الأدبي بوصفه رسالة لغوية قبل كل شيء فتحاول تفحص نسيجه(اللغوي) وترمي بحسب رأيه إلى تمكين القارئ من إدراك خصائص الأسلوب الفني إدراكا نقديا مع الوعي بما تحققه تلك الخصائص من غايات وظائفية[22] ومادامت

الأسلوبية، بحسب ما أشرنا تأخذ مفهومها من الجهة التي تبنتها، فإن مفهومها يتعدد بتعدد تلك الجهات ويكون محددا بحسب هذه الجهة أو تلك.

2- الأسلوبية في الدراسات المغاربية المعاصرة:

2-1- محمد العمري: ترجم محمد العمري كتاب (البلاغة والأسلوبية) لمؤلِّفه هنريش بليث (H. F. Plett)، ولم يقتصر على الترجمة فقط، بل تجاوز ذلك إلى تقديم البحث والتعليق عليه. لقد تجلت استفادة الباحث محمد العمري من جهود هنريش بليث (H. F. Plett) في الأسلوبية السيميائية بشكل واضح في دراسته النظرية والتطبيقية التي أقامها حول تحليل الخطاب الشعري. كما استفاد من الدراسات الشعرية والأسلوبية والسيميائية المعاصرة[23].

يقول محمد العمري موضِّحا طبيعة عمله في الأسلوبية: "يقع عملنا داخل أسلوبية النص التي يُعتبر جاكبسون Jakobson أشهر روادها، إنّ أسلوبية الرسالة هي التي يجب أن تكون المنطلق لأي تقدم نريده للأسلوبية، بالإضافة إلى ذلك فهناك واقع الدراسة الأسلوبية العربية الحديثة، التي لم تحقق بعد الاتساع والدقة، مما يصبح حصر الرؤية اصطناعيا في زاوية نظر واحدة، فقد يُعَد ذلك ترفا سابقا لأوانه، فلئن تبين لنا بجلاء أنّ التراث البلاغي العربي يستجيب استجابة عامة لأسلوبية النص وبالتحديد للشعرية البنيوية، فلن ندخر جهدا في الاستفادة مما تتيحه الأسلوبيات الأخرى من إمكانات، سواء ذلك عن طريق التبني أو الحوار"[24].

2-2- حمادي صمود: ويرصد حمادي صمود الترجمة الذاتية لمسار ليو سبيتزر (L. Spitzeer) الفكري، وبخاصة ما ورد من ذكر في فاتحة كتابه (دراسات في الأسلوب)، وقد أشار فيه إلى المؤثرات التي جعلته يُؤسِس منهجه في دراسة الأسلوب.

وعرض الباحث حمادي صمود كتاب ليو سبيتزر (L. Spitzeer) (دراسات في الأسلوب) وهو على قسمين: مقدمة هامة جدا كتبها الناقد جان ستاروبنسكي ، وفيها تحليل دقيق للكتاب. وقسم خاص بمتن الكتاب، وهو بدوره قسمان، مدخل نظري جاء في صورة ترجمة ذاتية لحياة سبيتزر العلمية، وقد اعتمده مُقدِم الكتاب اعتمادا كليا، قسم تطبيقي جُربت فيه الأصول النظرية على الأدب الفرنسي، تنتمي إلى فترات أدبية مختلفة من فترة ما يسمى بالكلاسيكية إلى القصة الجديدة مع ميشال بوتور، وأجناس وأنماط مختلفة.

وبعد وصف الكتاب ومناقشته خلص حمادي صمود إلى القول: "كان أصحاب هذا الاتجاه وعلى رأسهم سبيتزر لا يستطيعون تبيين المراحل التي تتم حسبها عملية القراءة، بل إنّ القراءة تتحول في الغالب إلى التقاط مباشر كلي، تحصل عنه صورة الشيء في نفس المُلتقِط بدون أن تكون مراتب الإدراك الواضح"[25].

2-3- محمد الهادي الطرابلسي: أما كتاب (خصائص الأسلوب في الشوقيات) لمحمد الهادي الطرابلسي ففي خطابه التنظيري الافتتاحي وجدناه مبنيا على ما يأتي من المفردات:

1- ما يخص الالتزام المنهجي الأسلوبي في بحثه.

2- ما يتعلق به من إجراءات (منهجية) يبثها عن طريق أسلوب الخطاب النقيض.

3- المفاهيم والمنطلقات المبدئية التي تؤلف رؤيته النقدية الخاصة بموضوعه، أي دراسة الشعر، وكذلك المتوجهة إلى الأدب ونقده، فهو موضوع الأسلوبية عموما.

ففيما يخص التزامه المنهجي المعلن عنه وجدناه يصرح بدءا أنه قد لا يلتزم حرفيا المنهجية المفترضة في مجال بحثه، وأنه ربما يتجاوزها بالتعدي والتلطيف في الوقت الذي يجد فيه ضرورة أن يخصص الباحث لنفسه منهجا في العمل، ولبلوغ هذه الأهداف يحتاج الدارس إلى علم يعمل في نطاقه ومنهج يسير على هديه أو على الأقل إلى سُنَّة في البحث يسير في ضوئها وإن دعاه تقدم البحث إلى تعديل ما فيها[26].

وهو يتخذ أسلوب الخطاب النقيض، لمواصلة بث إعلانه عن منهجه الإجرائي الذي سيتخذه في بحثه فنجده يقول: "لكننا بحثنا فلم نجد في الدراسات العربية من الأعمال اللغوية والنقدية الشاملة أو الجزئية ما يرمي إلى الأهداف التي نرمي إليها ويتوخى الموضوعية التي على أنفسنا نشترط..."[27].

فهو يتوخى الموضوعية و"يسعى إلى تحقيقها بوصفها شرطا يكون قوام عمله كله، ويدعو بعد ذلك إلى إيجاد علم مستحكم الأصول، وإقامة منهج يضمن به الوصول إلى نتيجة وصفها بأنها لا بد أن تكون بناءة، أما عن اختياراته المنهجية في ميدان الدراسة الأسلوبية، إنّ ما يميزها أنه كان يقف فيها عند كل استعمال بدت عليه الطرافة في شعر الشاعر من وجه من الوجوه"[28].

والطرافة في الاستعمال في رأيه تأتي من الآتي:

- شيوع الاِستعمال عند الشاعر.
- قيام الاِستعمال على تجاوز بعض قواعد اللغة المطردة في القديم والحديث معا أو يتصف بالعدول عن السبيل المباشرة في تأدية الكلام بدون تجاوز لقواعد اللغة فيما يخص أصول الصحة والخطأ.
- أن يكون الاِستعمال منعدم الأثر في النص أو قليل، قياسا على شأنه الشائع في كلام العرب فيكون بروزه بغيابه.
- أن يكون ملازما لوضعه الأول في اللغة معاكسا لحركة تطوره في الاِستعمال.
- بروزه بدور خاص يكون له أثر في قصائد دون غيرها أو أغراض دون سواها من شعر الشاعر نفسه.
- أن يحمل عنه اِنطباعا حسنا أو سيئا يؤثر في نفسه عند مباشرته النص.

وفي متابعته لمسألة الشيوع، أو التواتر، والاختفاء يكون قد سلك سبيل الأسلوبية الإحصائية في رصد الظاهرة الأسلوبية ثم إنه يتحول إلى مقولة الانزياح في رصدها، وبعد ذلك إلى أثر القارئ ويتجه في الفقرة الأخيرة إلى ما يقرّبه من الانطباعية في ظاهر الأمر، لكنه في الحقيقة يأخذ برأي من قال:" إن القراءة النقدية هي قراءة ذات مستوى معين من الثقافة في النص بحيث تساعد على إدراك مواطن التميز فيه، وهو ما يقرّبه من مقولة القارئ (الأنموذج) أو المتوسط عند ريفاتير (Riffaterre)"[29].

وتشمل مسألة (المقارنة) النقطتين الأخريين، المقارنة بين البنيات السياقية داخل النص، أو المقارنة مع الخارج بالقياس إلى ما سواه من الأدب من جنسه أو في إطاره الثقافي واللغوي. ويحدد اِتجاهه في البحث فيرسم سبيله في المجال المعرفي وهو اتجاه لغوي أسلوبي ينطلق من النص ذاته فلم يحتج، كما يرى إلى مقدمة عن الشاعر وحياته لأن سبيله إلى المعرفة هو (النص) بوصفه بنية قادرة على إقامة أجزائها ومرتكزاتها البنائية في داخلها، أي أنه متأثر بالمنهج البنيوي.

ويصرِّح بأنه سيعد جداول وسيضبط النسب والأرقام والشواهد، فيعود إلى اعتماد المنهج الإحصائي بإعلان صريح هذه المرة لأنه يعتقد صحته في سبيل الضبط المعرفي للنتائج، وإذا انتقلنا إلى المنطلقات المبدئية والرؤية الشخصية فإنّ أول ما نورده هو مفهومه (أو مفاهيمه) عن الأسلوبية.

وهو يقترح أنْ تكون الأسلوبية هي الحل لسد الفراغ في فضاء النقد العربي الحديث، فيقول: "وإنّ الأسلوبية، أو علم الأسلوب وهو أحد ما تفرع عن اللسانيات من علوم اللغة الحديثة ليطمح إلى سد هذه الثغرة تنظيرا وتطبيقا، وعلما ومنهجا"[30]، ثم يمهِّد لاختياره المنهجي ووضعه في الحقل التطبيقي إذ يعلن أنه يبغي الوصول عن طريقه إلى بناء نظريته المنشودة على قدر المستطاع، لكن هذا العلم لم يثمر بعد ما به نستطيع أن نعرف بوضوح على الأقل: ما الأسلوب؟ وما حد مستويات الكلام، ما الشعر، ما النثر؟ ولذلك ارتأينا أنه من الأنجع في الوضع الراهن أن يكون سيرنا من التطبيق إلى التنظير، على عكس ما يجري به العمل عادة.. وسوف لا يكون حظنا من التنظير كبيرا..."[31].

ويحدد أركان قاعدة العمل في بحثه إذ يقيمها على: الشعر واللغة والأسلوب، ثم يبيّن رؤيته حول هذه الأركان الثلاثة بموجب مجموعة من المفاهيم أسماها (التدقيقات المميزة) وهي باختصار تشمل على الآتي:

- منظور يتعلق بماهية الشعر، فالشعر بحسب رأيه ينطلق من مضمون فكري، ولكنه لا يسمو إلى درجة الفن المتميز إلا بما يتجاوز به المضمون الفكري من إمكانيات الأداء.
- إن كل مظهر لغوي شاع في الاستعمال (و تواتر) ولم يدخله تغيّر أو تحريف منذ اِستعماله الأول في وضع اللغة، فأصبح من مظاهر اللغة المميزة ومن قواعدها الثابتة وعناصرها، وهو مظهر ثابت في رأيه، وهو يرجع كل مظهر من المظاهر الثابتة في الكلام إلى اللغة إذ يعده من ثوابتها العامة، فمنظوره هنا يتعلق باللغة.
- فيما يتعلق بالأسلوب يرى أن مضانّ الأسلوب تكون في الجانب المتحول عن اللغة، وأنّ المتحوِّل عن اللغة في الاستعمال (أي الكلام) يكون ذا أشكال عديدة فمنه مثلا ما هو متحول عن قاعدة نحوية ومنه ما هو غير ذلك.

ويستقطب المتحوِّل عن اللغة كما يعتقد نوعين على الأقل:

- **المتحول المشترك**: ويضم الاستعمالات التي شاعت في كلام منشئ معين، أو كلام عدد من المنشئين في عصر من العصور أو في نوع خاص من الإنشاء.
- **المتحول الخاص:** وهو أقل شيوعا من الأول، فليس لاستعمالاته حظ من التواتر عند الكتاب سوى ما يكون عند صاحبه وقد لا يكون لها ذلك عنده أيضا، فهو يقع في خانة الخطأ أو اللحن، وقد وصف جملة المفاهيم تلك، هذه منطلقاتنا العلمية ورؤانا الشخصية.[32]

وأما عن أهدافه المعلنة التي يسعى إلى تحقيقها من خلال بحثه بموجب المنهجية العلمية المزعومة فقد تمثلت باختصار في الآتي:

- يرمي إلى دراسة اللغة العربية دراسة موضوعية، إذ يعدها نظاما في الاستعمال الشعري لدى شاعر معين ليميز خصائصها الإجرائية وإمكانياتها، ويسعى من خلال عمله إلى إدراك (السبيل إلى إثراء رصيدها العام من ناحية وإلى بناء الأساليب الخاصة المميزة انطلاقا من إمكانيات اللغة المشتركة من ناحية أخرى).
- وفضلا عن ذلك كله يعلن أنّ هدفه هو (تأسيس الأسلوبية التطبيقية في اللغة العربية لما لها من دور في وصف نظام اللغة وفي المساهمة في تركيز أحكامها العلمية و منطلقاتها المنهجية).
- إنّ منطلقاته الفكرية في خطابه هذا تحمل في مكونها الأساس عنصري العلمية والموضوعية، وقد اتخذ سبيله إلى ذلك بإجراء آلية متسقة مع ما عدّده من المفاهيم وأعلنه من الأهداف.

فكانت الموضوعية منطلقا مبدئيا في منهجه المعلن وضابطا معرفيا، بمعنى أنها عنصر أساسي في خطابه الافتتاحي، وقد سعى من خلالها إلى تحقيق فاعلية السلطة (العلمية) العليا في فكره، إذ أنّ منهجه في البحث كما يصرح ذو (اتجاه أسلوبي ينطلق من النص ذاته).

2-4- توفيق الزيدي: خصص الباحث توفيق الزيدي في كتابه (أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث) الفصل الرابع (للأثر الأسلوبي) في النقد العربي الحديث وحدد المقولات التي يبنى عليها الأسلوب وهي ثلاثة مقاييس: الاختيار، والتركيب، والاتساع.

وعاد إلى آراء الأسلوبيين الغربيين في هذه المقاييس؛ ومنهم ليو سبيتزر L. Spitzeer الذي يبرز الأسلوب كممارسة عملية لأدوات اللغة، وهو بذلك ينفي عنها صفة العفوية والمجانية، ثم"ماروزو" الذي يَعُدُّ الأسلوب موقفا يتخذه الباحث مما تعرضه عليه اللغة من شتى الوسائل التعبيرية.[33]

وأشار الباحث إلى أراء النقاد العرب ومنهم خلدون الشمعة الذي يرى " أنّ الأثر الأدبي ظاهرة فنية تختلف عن الظواهر الطبيعية، وخصوصيتها تتأتى من خلال اللغة الأدبية التي تستعمل قناة لإبلاغ معين، وهي يحكمها قانونها الخاص مما يجعلها ظاهرة فنية تتميز بصفات معينة في كل خطاب، وهذا ما ينحو بالأثر نحو الاستقلالية والإنفراد بميزات خاصة"[34].

2-5- حميد لحمداني:أقام الباحث حميد لحمداني مبحثا خاصا باللغة والأسلوب في الحكي، وذلك في كتابه (أسلوبية الرواية) من وجهة نظر بيير زيما Pierr V.Zima، ويرى لحمداني أن المبحث له علاقة بالجانب البنيوي في دراسة الحكي لأنه يركّز على المكونات الداخلية و أهمها: لغة الحكي، وأسلوب الحكي.

و يستعين أيضا بآراء النقاد الذين تناولوا هذه الظاهرة ومنهم بارت Barthes الذي عالج العلاقة بين اللغة و الحكي، وتناول نحو الجملة، ونحو الخطاب الحكائي، وذهب إلى أن أسلوب الرواية متعدد يشمل عددا من اللغات وعددا من الأصوات، والمنهج الكفيل بظاهرة أساليب الرواية هو الأسلوبية، وأسلوبية الرواية.[35]

ويمهِّد لحمداني للانتقال إلى أسلوبية الرواية بقوله: "هناك ميل واضح إلى التأكيد على أنّ بلاغة الرواية إذا أريد لها أن تصبح علما جديدا قادرا على استيعاب تقنية الرواية ومقوماتها الجمالية، عليها أنْ تتحول إلى ما يمكن تسميته بأسلوبية الرواية، فهي (أي أسلوبية الرواية) بهذا المعنى مرحلة متأخرة نصل إليها بعد تجاوز مرحلة بلاغة الرواية"[36].

وعن أثر الدراسة البلاغية في النقد الروائي الحديث يرى أنه "إذا كانت رواسب البلاغة القديمة قد بقيت في الدراسة الأسلوبية للشعر والنثر الفني فإنها أُلغيت تماما مع الدراسات الروائية."[37]

وكلامه هذا يوضح السبب في إقامة معظم الدراسات الأسلوبية حول الشعر أكثر من غيره من أجناس الأدب الأخرى، مثلما وُجد في النقد العربي الحديث.

2-6- محمد خطابي: يؤسِّس محمد خطابي خطابه النقدي الأسلوبي في كتابه (لسانيات النص- مدخل إلى انسجام الخطاب-)، اعتمادا على آراء فان ديك وأطروحاته في انسجام الخطاب وهي تقوم على الشكل التالي: الخطاب ويتفرع إلى وظيفتين دلالية وتداولية، وتحوي الوظيفة الدلالية العناصر التالية: الترابط والانسجام، والبنيات الكلية، أما الوظيفة التداولية فتحوي: السياقات والأفعال الكلامية، تداوليات الخطاب، والأفعال الكلامية الكلية[38].

ومثلما استفاد الباحث محمد خطابي من الدراسات الغربية في تحليل الخطاب، استفاد من الدراسات العربية ومنها البلاغة، والنقد، وعلم التفسير، وعلوم القرآن، وقد استلهم من هذه الحقول المعرفية ما يتناسب ونظرية تحليل الخطاب الذي هدف إلى تأسيسها من منظور المزاوجة بين إسهامات المعارف الغربية المعاصرة في اللسانيات الوصفية، ولسانيات الخطاب وتحليل الخطاب والذكاء الاصطناعي، والإسهامات العربية في البلاغة، والنقد، وعلوم القرآن، وما أسسته من إجراءات ومفاهيم في تحليل الخطاب[39].

وقد أردف الباحث هذه الإجراءات بشروح لأهم مكوناتها استوفى من خلالها تحديد العلاقات بين عناصر الخطاب للاستئثار بانسجامه، كما حدد ذلك فان ديك ومن سار في اتجاهه من الباحثين المؤسِسين (للسانيات الخطاب) أمثال: (م.أ. هاليدي وَ رقية حسن)، لهما كتاب مشترك بعنوان (الاتساق في اللغة الإنجليزية Choesion in english) صدر عام 1976، وهو كتاب يتألف من مدخل وسبعة فصول، خصص المدخل لتحديد بعض المفاهيم مثل: النص والنصية، والاتساق، وخُصصت ستة فصول لبحث مظاهر الاتساق التالية: الإحالة، والاستبدال، والحذف والوصل، والاتساق المعجمي، والاتساق المعجمي، ومعنى الاتساق، أما الفصل السابع فقد حللت فيه نصوص متنوعة، تطبيقا لما صيغ في الفصول النظرية.[40]

فَدراسة محمد خطابي جهد علمي واجتهاد رائد في الحركة اللسانية والنقدية العربية المعاصرة فهو لا يركن إلى المنجز من الفكر اللغوي والنقدي والبلاغي العربي، كما لا يستسلم بخنوع إلى المنجز من الدرس اللساني الغربي، بل يتمثل الفكرين معا، ويجادل من منطلق سجالي، ويبني على المتراكم من المعارف نظرية منسجمة تبحث في انسجام الخطاب الأدبي والخطاب الشعري على الخصوص.[41]

2-7- عبد الملك مرتاض: أما عبد الملك مرتاض في كتاب (الأمثال الشعبية الجزائرية) فقد أومأ إلى عدة أصناف من الأسلوبية، لكنه اكتفى بالخوض في صنفين اثنين (لا يخلوان من عدول عن الترجمة الحرفية الشائعة وربما من تعديل طفيف في موضوع كل صنف كذلك)، هما (الأسلوبية التاريخية) التي يجعلها مقابلا للمصطلح الأجنبي S. Génétique (و كان الأشيع

والأمثل أنْ يقول: أسلوبية تكوينية)، ويجعل موضوعها الجواب عن السؤال: لماذا يكتب الكاتب؟ ثم (الأسلوبية الوصفية) التـــي تجيب - في نظره- عن سؤال آخر هو: كيف يكتب الكاتب؟[42].

لعل مثل هذا الكلام تبسيط إشكالي من شأنه أن يُخلِط المفاهيم، لأن الجواب عن السؤال الأخير قد يكـــون أيضـــا من اختصاص الأسلوبية الأولى (والتي يسميها مرتاض تاريخية، ويسميها آخرون: تكوينيـــة أو أدبيـــة، أو نقديـــة، أو أسلوبية الفرد، أو أسلوبية الكاتب)، كما أن السؤال الأول (لماذا يكتب الأديب؟) قد تضطلع بالإجابة عنه أسلوبية أخـــرى يسميها غيرو Guiraud (الأسلوبية الوظيفية)، ويُمثِّل لها بجهود رومان جاكبسون R. Jakobson. [43]

2-8- رابح بوحوش: أما بحث رابح بوحوش (الخطاب الأدبي- دراسة أسلوبية -) فهو بحث يعرِّف بالأسلوبية نظريا ثـــم يتخذها وسيلة منهجية لتحليل نص أدبي من التراث العربي، ويعرّف الأسلوبية " أنها علم يرمي إلى تخليص النص الأدبي مـــن الأحكام المعيارية، ويهدف إلى علمنة الدراسة الأدبية "[44].

وانطلاقا من تحديد طبيعة الأسلوبية وماهيتها ومرتكزاتها في التحليل، يقدِّم الباحث مقاربة أسلوبية عن نص الأصمعي: (أعرابية على قبر زوجها) فيرى أنه نص متميز بنمط من التفاعل البنيوي والدلالي، إذ أول ما يلفت انتباه القارئ فيه هو تمازج السرد والشعر، وتداخل الأغراض والأساليب، ثم يشرع في تحليل النص مشيرا إلى خصائصه الفنية والجمالية، متتبعـــا كيفيـــة البناء الأسلوبي فيه، مركزا في تحليله على مكونات النص اللغوية، فتناولها وفق تدرجها اللساني، وهـــي الجوانـــب الصـــوتية والمورفولوجية والتركيبية والدلالية، والجدير بالملاحظة في هذه الدراسة الأسلوبية هو القدرة التأويلية التي يظهرهـــا الباحـــث، والتي تعمق رؤية النص، وتيسر فهمه، فتسهم كل وحدة لغوية منه في إثراء معناه[45].

2-9- عبد الحميد بوزوينة: ومن الدراسات التي اعتمدت الأسلوب الأدبي موضوعا لها بحث عبد الحميد بوزوينة حول: (بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي - دراسة وصفية تحليلية فنية-).

استقام البحث على خمسة فصول؛ تضمّن الفصل الأول الحديث عن طبيعة البناء العام للمقالة الأدبية، كما تبدو في (عيون البصائر) ومختلف العلاقات التي تتحكم في أجزاء المقالة ونموها الداخلي. وتضمَّن الفصل الثاني دراسة البنى الإفرادية، وســـر اختيارها ووظيفتها البنيوية والدلالية، واشتمل الفصل الثالث على دراسة البنى التركيبية والوقائع الأسلوبية التـــي تنـــتظم فيهـــا المفردات، مع تحديد أسرار البنية التركيبية في نثر الإبراهيمي.

وتناول في الفصل الرابع الظواهر الصوتية في (مقالة الإبراهيمي) وأبعاده الإيقاعية والجماليـــة، ودرس فـــي الفصـــل الخامس الصورة جماليا ووظيفيا، ويرى في هذا السياق أن أساس شاعرية النثر يكمن في طريقة استخدام اللفظة فـــي الـــنص الأدبي[46]، وهو في هذا المجال يتمثل قول(صلاح فضل) الذي يرى أنه: 'ليس هناك كلمة شعرية وأخرى غير شعرية وإنما هناك أساسا (تشعير) للكلمات المستخدمة"[47]، ويحدث تشعير الكلمات- بإعطائها بعدها الشعري- من خلال تركيبها وفق نظام لغـــوي مخصوص، كلما كان هناك إتقان في صناعة الشعر أو النثر كلما حقق الخطاب شعريته، وأَحدَث في المتلقي تأثيرا جماليا خاصا.

لقد عزَّز عبد الحميد بوزوينة بحثه بجداول وإحصائيات مكنته من رصد الظواهر الأسلوبية في مقالة الإبراهيمي ومكنته من وصف التشكيل اللغوي وطرائق النظم، هذا بالإضافة إلى ما قام به من إحصاء دقيق لبعض الظواهر والإحصاء جانب مهم - في اِعتقادنا - في دراسة الظواهر الأسلوبية لأنه يضع يد الدارس على الحقائق اللغوية المستخدمة، ويحدد كثافتها وتواترهـــا مقارنة مع الظواهر التي تظهر بصورة قليلة، وليس الإحصاء المجرد مُهِمّا إذا لم يُعزز بتحديد كيفية تشكيل الظواهر الأسلوبية، وتحديد الوظائف التي تقوم بها[48].

ولم يغفل الباحث عبد الحميد بوزوينة هذه الخصائص في التحليل، إن ما يطبع هذا البحث هو الاستعمال الموفَّق للأدوات الإجرائية في التحليل الأسلوبي الذي يجعله يحقق صفة العلمية عن جدارة على صغر حجمه وعدم إسهابه وتفضيله الحديث في جميع الظواهر الأسلوبية في مقالة الإبراهيمي[49].

10-2- نور الدين السد: يرى نور الدين السد في كتابه (الأسلوبية وتحليل الخطاب) أنّ "الأسلوبية هي الوجه الجمالي للألسنية، إنها تبحث في الخصائص التعبيرية والشعرية التي يتوسلها الخطاب الأدبي، وترتدي طابعا علميا تقريريا في وصفها للوقائع وتصنيفها بشكل موضوعي ومنهجي"[50] وخلافا لغيره من الباحثين، فإنه يمعن في "التمييز الدقيق بين الأسلوبية والبلاغة من خلال شكل تخطيطي يقوم على سبعة عشر عنصرا كاملا تتمحور عليها المفارقة الكبيرة بين العِلمين؛ كأنْ تكون البلاغة علما معياريا، تعليميا، نمطيا، تصنيفيا جاهزا، تجزيئيا،... وتكون الأسلوبية علما وصفيا، وضعيا، تعليليا، شموليا..."[51].

ثم يميّز تمييزا مفصّلا بين أربعة اتجاهات أسلوبية هي: الأسلوبية التعبيرية، والأسلوبية النفسية، والأسلوبية البنيوية، والأسلوبية الإحصائية.

ومع دعوته الضمنية إلى أسلوبية جديدة تركيبية أو تكاملية ويسميها (السيميائية الأسلوبية):"...إننا نقترح المنهج السيميائي الأسلوبي وسيلة علمية، ومنظومة تحليلية ومعرفية متمكنة من آلياتها الإجرائية لتفكيك مكونات الخطاب وتحليل بناه السطحية والعميقة، وتحديد وظائفه وأبعاده ورؤاه... ، مقترحا إياها اعتمادا على الباحث باتريك إمبار P. Imbert الذي وضع مصطلح (Sémiostyle)، وطبقه - عام 1980- على أساليب بلزاك ، و فلوبير، و زولا"[52].

الخلاصة: عَرَف النقد المغاربي الحديث والمعاصر مجموعة من المناهج النقدية الغربية وذلك بفضل المثاقفة، والترجمة والاحتكاك بالغرب، والاهتمام بها عن طريق نشر الكتب، والترجمة، والدراسات والمقالات التعريفية، و تنظيم الملتقيات والجمعيات، وقد نقل نقاد المغرب العربي معالم التيارات المختلفة لهذه المناهج الحداثية، ونصوص أعلامها والكشف عن كتاباتهم وتطبيق أدواتها، بالإضافة إلى الاختلاف في ترجمة وتعريب هذه المناهج، و المصطلحات والمفاهيم النقدية.

الهوامش:

1- جاء في (لسان العرب) مادة س ل ب: الأسلوب يقال للشطر من النخيل، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، و(الأسلوب) الطريق، والوجه، والمذهب، يقال أنتم في أسلوب سوء، و... (الأسلوب) الفن، يقال أخذ فلان في أساليب القول، أي في أفانين من القول. (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر (بيروت)، ط1، (1990)، المجلد17، ص:456).

2- ناظم حسن، البنى الأسلوبية- دراسة في "أنشودة المطر" للسياب، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2002، ص:20.

3- غيرو بيير، الأسلوبية، ترجمة: عياشي منذر، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط2، (د ت)، ص:9.

4- المسدي عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط5، 2006، ص:51.

5- المرجع نفسه، ص:52.

6- ينظر: المسدي عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، ص: 52.

7- أحمد سليمان فتح الله، الأسلوبية- مدخل نظري ودراسة تطبيقية - دار الآفاق العربية، ط1، 2008، ص:12.

8- المسدي عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، ص ص:27، 28.

9- المرجع نفسه، ص:54.

10- المرجع نفسه، ص:54.

11- المرجع نفسه، ص ص:55، 56.

12- ينظر: المرجع نفسه، ص:56.

13- ينظر: المرجع نفسه، ص:71.

14- ينظر: أحمد سليمان فتح الله، الأسلوبية، ص ص:15، 16.

15- المرجع نفسه، ص:16.

16- ينظر: المسدي عبد السلام، ص ص:77، 78.

17- ينظر: المرجع نفسه، ص:78.

[18] - الأسلوبية: تعني كلمة استيلوس في اللاتينية (الأزميل)، أو (المنقاش) للحفر، والكتابة، وقد كان اللاتين يستعملونها مجازاً للدلالة على شكلية الحفر، أو شكلية الكتابة، ثم مع الزمن اكتسبت دلالتها الاصطلاحية، البلاغية، والأسلوبية، وصارت تدل على الطريقة الخاصة للكاتب في التعبير.. (بن ذريل عدنان، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، دمشق، اتحاد الكتاب العرب،(د ط)، 2000، ص:43.)

[19] - غيرو بيير، الأسلوبية، ص:9.

[20] - المرجع نفسه، ص:41.

[21] - بدري الحربي فرحان، الأسلوبية في النقد العربي الحديث- دراسة في تحليل الخطاب- المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2003، ص:15.

[22] - ينظر: المرجع نفسه، ص:15.

[23] - بليث هنريش، البلاغة والأسلوبية، ص:08.

[24] - بعلي حفناوي، فضاءات المقارنة الجديدة الحداثة..العولمة..جماليات التلقي، ص ص:166، 167.

[25] - المرجع نفسه، ص:171.

[26] - ينظر: بدري الحربي فرحان، الأسلوبية في النقد العربي الحديث، ص:101.

[27] - المرجع نفسه، ص:101.

[28] - المرجع نفسه، ص:102.

[29] - المرجع نفسه، ص:102.

[30] - المرجع نفسه، ص:103.

[31] - ينظر: المرجع نفسه، ص:103.

[32] - ينظر: المرجع نفسه، ص:104.

[33] - ينظر: السد نور الدين، الأسلوبية وتحليل الخطاب- دراسة في النقد العربي" الأسلوبية والأسلوب "- دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (د ط)، (د ت)،، ج1، ص:43.

[34] - المرجع نفسه،ج1، ص:43.

[35] - ينظر: بعلي حفناوي، فضاءات المقارنة الجديدة الحداثة..العولمة.. جماليات التلقي، ص:174.

[36] - المرجع نفسه، ص:91.

[37] - المرجع نفسه، ص:91.

[38] - ينظر: المرجع نفسه، ص:175.

[39] - السد نور الدين، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج2، ص:70.

[40] - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص:70.

[41] - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص:71.

[42] - ينظر: وغليسي يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص:186.

[43] - ينظر: المرجع نفسه، ص:186.

[44] - السد نور الدين، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج2، ص:150.

[45] - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص:150.

[46] - ينظر: المرجع نفسه،ج2، ص:158.

[47] - فضل صلاح، نظرية البنائية، ص:399.

[48] - ينظر: السد نور الدين، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج2، ص:159.

[49] - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص:159.

[50] - وغليسي يوسف، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2009، ص:88.

[51] - المرجع نفسه، ص:88.

[52] - المرجع نفسه، ص ص:88،89.